مجلة اللغة العربية وآدابها

السنة السابعة، العدد الثالث عشر

خريف وشتاء ١٤٣٢-١٤٣٣هـ

صفحة ١٣١ - ١٤٣

المنحى الدّلالي لنص المعصوم عليه السلام

محمد حسن معصومي[١*]، سيد أكبر غضنفري[٢]

١ و٢. عضو الهيئة التعليمية بجامعة «آزاد» الإسلامية، قم

(تاريخ الاستلام: ١٤٣٢/٤/١ ؛ تاريخ القبول: ١٤٣٢/١٢/٥)

الملخّص

اتّخذ مفهوم النص أبعاداً خاصَّة ليكون تعبيراً عن المحور الأساس الذي يدور عليه الأدب بشكل عام والبلاغة بشكل خاص، ومن بين النصوص، يحظى النص الديني بحساسية بالغة، كونها مرشّحاً لتأويلات شتى، وكثيراً ما تكون هذه التأويلات نفعية تُستغل لصالح أفراد وجماعات وأحزاب، في ما يتخذونه من المواقف، وهذا بدوره يؤدي إلى خلخلة في النظام الفكري السائد على المجتمع وبالتالي ينقض الغرض الذي جاءت لأجله رسالات السماء. ومن هذا المنطلق انبرى أئمة أهل البيت عليهم السلام لتفسير النص القرآني والروائي لحفظ نزاهة الفكر والمجتمع من شذوذات. فالمقالة تعالج النصوص الدينية التي أبدعها الأئمة عليهم السلام نقدياً وبلاغياً وذلك في سياق الغرض الذى أشرنا إليه وتحت عنوانين، هما: تقويم القراءات السلبية والنقد البلاغي للنص.

الكلمات الرئيسية

القراءات السلبية، النقد البلاغي، الذوق القرآني، القراءة السكونية.

* الكاتب المسؤول الهاتف: ٠٩١٢٧٥٨١٦٧٠

Email: dr_masumi@yahoo.com

المقدمة

النص كائنٌ لغوي مرنٌ في طبيعته، ومِن مرونته أنَّه عُرضَةٌ لشتّى التأويلات، وآية ذلك أنَّ كلَّ قارئٍ يؤوِّله حسب نزعته الفكرية ليستلّ منه ما يتناسب ورؤيته الخاصة، فالنّص من هذه النّاحية يتمتع بحساسية بالغة كونه مرشَّحاً لتأويلات عديدة في آنٍ واحدٍ، إلّا أنَّ التأويل نفسه ليس مرفوضاً في حدٍّ ذاته طالما طبيعة النص يفرض ذلك وطالما القارئ يؤوِّله بطريقته الفردية أو الإيدئولوجية التي قد تطابق الحقيقة وقد لا تطابقها، علماً أنَّ هذه القراءات ليست في مستوى واحدٍ، بل تتفاوت قيمتها حسب المستوى الثقافي والفكري للقارئ. لذلك نجدُ أنّ البحث عن القارئ المثالي يفرض ضرورته لتصحيح الأخطاء الناجمة عن القراءة السلبية للنص.

إذن، احتمال قراءات غير منهية للنص لا يجيز أية قراءة ممكنة، فالاعتقاد بفقدان معنى حقيقي لنص معين. وإعطاء الحرية المطلقة للمؤول في تأويل النص ليحقق مراده، يؤدي إلى عدم التفاضل بين تأويل وآخر. فلابد من وضع معايير خاصة للتمييز بين التأويلات الصحيحة والخاطئة.

فلذلك فيما يتعلق بالنص الديني، فإنّ أئمة أهل البيت عليهم السلام هم القرّاء المثاليين، باعتبارهم الراسخين في العلم، بيد أن قراءتهم للنص ليست دائماً لفكّ مغاليقه أو محاولة استيعابه فحسب، بل هي في كثيرٍ من الأحيان، محاولة لإنتاج النّص من جديد، بمعنى إعطاءه بعض الدّلالات الجديدة وكذلك إنعاشه، وإحياء مكونّاته، منطلقين في ذلك من رؤيتهم الصافية ونظرتهم الثاقبة المستلهمة من السنن النبوية الشريفة، المأخوذة بدورها من وحي السماء. فمن هنا ينقدون أحياناً الانطباعات الخاطئة عن النص أو ما يُسمّى بالقراءات السلبية، فيصحّحون الأخطاء الفكرية أو الرؤيوية التي تنجم عادة عن إساءة فهم النص أو ما ينجم عن العبث به، وقد يقترحون بدائل لغوية، كما يؤسسون أحياناً معايير أدبية دقيقة لاستيعابه وفهمه في ضوء تلك المعايير. فالأئمة عليهم السلام كقرّاء مثاليين قد بيّنوا قصدية النص من خلال علامات أخرى من النص وبذلك رفضوا القراءات المغلوطة وصحّحوا الأخطاء الفكرية من خلال قرائتهم المقبولة للنص.

أما محاولتنا في هذه المقالة، فقد جاءت لكشف هذه الناحية من نتاجاتهم، حيث عرضنا من خلالها بعض مواقف الأئمة عليهم السلام من النص الديني نقدياً وبلاغياً تحت عنوانين، هما:

١. تقويم القراءة السلبية للنص.

٢. النقد البلاغي للنّص.

تقويم القراءة السلبية

يُعدُّ تقويم القراءة السلبية من المعالجات النقدية والموضوعية للنص، ولأئمة أهل البيت عليهم السلام باعٌ طويلٌ في هذا الميدان، حيث يستوعبون النص ثم يأخذون على القراءة السلبية من خلال نقدٍ معلَّلٍ، فعلى سبيل المثال هناك من يؤوّل النص دون أساس يُعتمد عليه للتّأويل، فيأتي أحدهم ويفسّر الكلمة على هواه، بحيث لا نجد المعنى المراد فيما يفسّره، فإنَّ ذلك يعني الفوضى. هنا ينبري الإمام عليه السلام لينقد قراءته، لذلك يعرض عليه التأويل الصحيح، راسماً له حدود النص؛ أمّا الروايات الواردة في هذا الخصوص فكثيرة جداً، نذكر هنا طرفاً منها: «قال رجلٌ لأبي عبدالله عليه السلام : إن الناس يقولون: من لم يكن عربياً صلباً أو مولى صريحاً فهو سفليّ.

فقال: وأيّ شيءٍ المولى الصريح؟

فقال له الرجل: من مُلك أبواه.

قال: ولم قالوا هذا؟

قال: قالوا لقول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم مولى القوم من أنفسهم.

فقال: سبحان الله! أما بلغك أنّ رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم قال: أنا مولى من لا مولى له، وأنا مولى كل مسلم عربيّها وعجميّها؟ فمن والى رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أليس يكون من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ؟ ثم قال: أيّهما أشرف، من كان من نفس رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، أو من كان من نفس أعرابي جلف[1] بائل[2] على عقبيه؟ ثم قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم : مَن دخل الإسلام رغبة خير ممن دخل رهبة. ودخل المنافقون رهبة والموالي دخلوا رغبةً» (ابن بابويه، ١٤١٨، ص٤٠٥).

هذا النقد الموجّه إلى القراءة السلبية للرّجل يستند إلى قول رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ، باعتباره المعيار الأمثل والقول الفصل في معرفة معنى النص واكتشاف معانيه أو في القراءة الإيجابية له، من هذا المنطلق يأخذ قراءة الإمام للنص مصداقيته وكذلك أصالته الضاربة جذورها في التراث النبوي الثرّ.

والرواية التالية تأتي في نفس السياق: «سأل رجلٌ من الزنادقة أبا جعفر الأحول، فقال:

---

١. الجلف: الغليظ الجافي.

٢. البائل: اسم فاعل من بال يبُول.

أخبرني عن قول الله تعالى: ﴿**فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ**...﴾ (النساء: ٣)، وقال تعالى في آخر السورة: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ**...﴾ (النساء: ١٢٩)، فبين القولين فرقٌ؟ فقال أبو جعفر الأحول: فلم يكن في ذلك عندي جواب فقدمت المدينة فدخلت على أبي عبدالله عليه السلام، فسألته عن الآيتين فقال: أما قوله: ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ أَلاَّ تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً**...﴾ (النساء: ٣)، فإنّما عنى عن النفقة وقوله: ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا**...﴾ فإنّما في المودة، فإنّه لا يقدر أحدٌ أن يعدل بين امرأتين في المودة» (المجلسي، ١٤٠٣، ج١٠، ص٢٠٢).

إنّ القارئ، الذي حاول إبراز المفارقة بين الآيتين، قارئٌ مجاوز للنص، لأنّه يلعب خارج حدود النص، بل يقابله بنزواته وأهوائه، لذلك يوجّه هذا النقد الهش إلى المعنى، ويأخذ على المفارقة الشكلية بين الآيتين، من منطلق معرفته السطحية بالنص، بيد أن الإمام عليه السلام يرشده إلى الوجه الصحيح ويزيل الشبهة مبيّناً ما ينبغي أن يدقق فيه، كما يؤكد الإمام عليه السلام أنّه ليست هناك أية مفارقة نصية، إذا تعمّق القارئ في المعنى الذي تقصده الآية الأُولى وكذلك الآية الثانية. فعندما يقول ـ جلّ وعلا ـ : ﴿**فَإِنْ خِفْتُمْ**...﴾ يعنى من ذلك أن الناس إذا ما خافوا من عدم العدالة في النفقة، فعليهم أن يكتفوا بواحدة، بينما يعني من ﴿**وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا**...﴾ أنهم لا يستطيعون أن يعدلوا في المودة، لأن المودة قد لا تكون باختيار الإنسان.

فيما يتعلق بقراءات سلبية للنص القرآني، بين أيدينا هذه المجموعة من الروايات: «روى العياشي عن الكاظم عليه السلام أنّه قال لبعض أصحابه: كيف تقرأ هذه الآية: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ**﴾ (آل عمران: ١٠٢)، ماذا؟

قال: مسلمون.

فقال عليه السلام: سبحان الله! يوقع عليهم الإيمان فيسمّيهم مؤمنين، ثم يسألهم الإسلام، والإيمان فوق الإسلام؟

قال: هكذا يُقرأ في قراءة زيدٍ.

قال عليه السلام: إنّما هي في قراءة عليٍّ عليه السلام وهو التنزيل الذي نزل به جبريل على محمد صلى الله عليه وآله وسلم، إلّا وأنتم مسلمون لرسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ثمّ للإمام من بعده» (العياشي، ١٤١١، ج١، صص١٩٣-١٩٤).

ينقد الإمام هذه القراءة للآية، واضعاً أمام القارئ السلبي، الدلالة المقصودة.

وفي رواية عن الريان بن الصلت: قال: «حضر الرضا عليه السلام مجلس المأمون بمرو، وقد

اجتمع في مجلسه جماعة من علماء العراق وخراسان، فقال المأمون: أخبروني عن معنى هذه الآية: ﴿ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا﴾ (فاطر: ٣٢).

فقالت العلماءُ: أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ بذلك الأُمّة كلها.

فقال المأمون: ما تقول يا أبا الحسن؟

فقال الرضا عليه السلام: لا أقول كما قالوا، ولكني أقول: أراد الله ـ عزّ وجلّ ـ بذلك، العترة الطاهرة.

فقال المأمون: وكيف عنى العترة من دون الأُمة؟

فقال له الرضا عليه السلام: إنّه لو أراد الأُمّة لكانت أجمعها في الجنة، لقول الله ـ عزّ وجل ـ : ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَمِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللَّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ﴾ (فاطر: ٣٢)، ثم جمعهم كلهم في الجنة؟ فقال ـ عزّ وجلّ ـ : ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ﴾ (فاطر: ٣٢)، فصارت الوارثة للعترة الطاهرة لا لغيرهم». ثمّ قال عليه السلام: نحن أهل الذكر الذين قال الله: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لاَ تَعْلَمُونَ﴾ (نحل: ٤٣)، فنحن أهل الذكر فاسئلونا إن كنتم لا تعلمون، فقال العلماء الحاضرون في مجلس المأمون: إنّما عنى الله بذلك اليهود والنصارى.

فقال أبو الحسن عليه السلام: سبحان الله! وهل يجوز ذلك إذا يدعونا إلى دينهم ويقولون: إنّه أفضل من دين الإسلام؟

فقال المأمون: فهل عندك في ذلك شرحٌ بخلاف ما قالوه يا أبا الحسن؟ فقال أبو الحسن: نعم! الذكر رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم ونحن أهله وذلك بينٌ في كتاب الله ـ عزّ وجل ـ حيث يقول في سورة الطلاق: ﴿فَاتَّقُوا اللَّهَ يَا أُولِي الأَلْبَابِ الَّذِينَ آمَنُوا قَدْ أَنْزَلَ اللَّهُ إِلَيْكُمْ ذِكْراً رَسُولاً يَتْلُوا عَلَيْكُمْ آيَاتِ اللَّهِ مُبَيِّنَاتٍ﴾ (الطلاق: ٩-١٠)، فالذكر رسول الله ونحن أهله» (ابن بابويه، ١٤٠٤، ج١، ص٢٣٩). هكذا يفسّر الإمام عليه السلام الآية مرشدا القوم نحو الدّلالة المقصودة.

وفي رواية أخرى، سألوا الإمام الحسن عليه السلام: «لماذا سمّى الله هوداً ـ وهو نبي ـ أخا عادٍ وهم كفار؟[1]

فأجاب عليه السلام: قد يقال للشامي يا أخا الشام، ولليماني يا أخا اليمن ويقال للمسايف اللازم

١. في قوله تعالى: ﴿وَإِلَى عَادٍ أَخَاهُمْ هُوداً﴾ (هود: ٥٠)

له المقاتل به فلانٌ أخ السيف، فليس في يد المتأول، أخ المؤمن لا يكون إلّا مؤمناً مع شهادة القرآن بخلافه، وشهادة اللغة بأنّه يكون المؤمن أخا الجماد الذي هو الشام واليمن والسيف والرمح» (ابن بابويه، ١٤٠٨، ج١، ص٢٦٣).

يوضح الإمام عليه السلام عبر هذه المعالجة الأدبية للفظة «الأخ»، المعنى الصحيح له، محتجاً في ذلك بالقرآن واللغة العربية؛ لأنهما معياران أساسيان لمعرفة الصحيح من اللغة.

وفي نفس المجال وردت الرواية التالية: «... حضر الإمام الرضا عليه السلام مجلس المأمون إذ قال للإمام: يا ابن رسول الله! أليس من قولك: أن الأنبياء معصومون؟

قال عليه السلام: بلى!

قال: فما معنى قول الله عزّوجلّ: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى**﴾؟ (طه: ٢١).

قال عليه السلام: إن الله ـ تبارك وتعالى ـ قال لآدم عليه السلام: ﴿**اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ**﴾ (البقرة: ٣٥)، ولم يقل لهما لا تأكلا من هذه الشجرة، ولا مما كان من جنسها، فلم يقربا تلك الشجرة، وإنّما أكلا من غيرها إذ وسوس الشيطان إليهما وقال: ﴿**مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ**﴾ (الأعراف: ٢٠ — ٢٢). وإنّما نهاكما أن تقربا غيرها، ولم ينهكما عن الأكل منها ﴿**إِلَّا أَنْ تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**﴾ (الأعراف: ٢٠)، و﴿**وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ**﴾ (الأعراف: ٢١)، ولم يكن آدم وحوّا شاهدا قبل ذلك من يحلف بالله كاذباً ﴿**فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ**﴾ (الأعراف: ٢٢)، فأكلا منها ثقة بيمينه بالله، وكان ذلك من آدم قبل النبوة، ولم يكن ذلك بذنب كبير يستحق دخول النار به، وإنّما كان من الصغائر الموهوبة التي تجوز على الأنبياء قبل نزول الوحي عليهم، [حيث] قال الله تعالى: ﴿**وَعَصَى آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَى ۝ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَى**﴾ (طه: ١٢١-١٢٢)، وقال ـ عزَّ وجلَّ ـ : ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى آدَمَ وَنُوحاً وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ**﴾ (آل عمران: ٣٣)» (الطبرسي، ١٣٦٢، ج٢، صص٤٢٣-٤٢٤).

تظهر ضمن هذه المعالجة الذكية للنص القرآني، براعة الإمام عليه السلام، في نقد القراءة السلبية التي توفّر عليها المأمون، أمّا القراءة الإيجابية للإمام عليه السلام فإنها تستند إلى آيات قرآنية، باعتبارها المعيار الأمثل في مقاربة النص، فالقرآن يفسّر بعضُه بعضاً.

وثمة رواية تقول: «قال عليٌّ عليه السلام لقومٍ أصحاء جالسين في زاوية المسجد: مَن أنتم؟

قالوا: نحن المتوكّلون.

قال عليه السلام: لا بل أنتم المتأكّلة[١]، فإن كنتم متوكلين، فما بلغ بكم توكّلهم؟

قالوا: إذا وجدنا أكلنا، وإذا فقدنا صبرنا.

قال عليه السلام: هكذا تفعل الكلاب عندنا!

قالوا: فماذا نفعل؟

قال عليه السلام: كما نفعل.

قالوا: كيف تفعلون؟

قال عليه السلام: إذا وجدنا بذلنا، وإذا فقدنا شكرنا» (النوري الطبري، د.ت، ح١٢٧٩٨).

لاشكّ أن قراءة هؤلاء الجالسين في المسجد عن مفهوم «التوكل»، قراءة سلبية غير مطابقة للحقيقة، فهؤلاء مارسوا الانزواء ولزموا المسجد من منطلق نزعة فردية، حتى أدّى بهم هذه القراءة إلى أن انقطعوا عن المجتمع الذي ينتمون إليه، بل تركوا أيَّ عمل اجتماعي مفيد على أساس انطباعهم الخاطئ عن مفهوم «التوكل»، وهذا ما دفع الإمام باعتباره قارئاً محايثاً للنص أن يوجِّهَ إليهم هذا النقد اللاذع أوّلاً ومن ثمّ تعريفهم بالقراءة الصحيحة لهذه الظاهرة التي تحظى بحساسية خاصة فهماً وتطبيقاً، لذلك قال عليه السلام لهم ما معناه: افعلوا في ممارسة «التوكل»، كما نفعل نحن أئمة أهل البيت.

وفي رواية أخرى، قال أبو عبيدة للإمام الصّادق عليه السلام: «اُدْعُ اللّهَ لي أن لا يجعل رزقي على أيدي العباد، فقال عليه السلام: أبى الله عليك ذلك إلّا أن جعل أرزاق العباد بعضهم من بعض ولكن اُدع اللّهَ أن يجعل رزقك على أيدي خيار خلقه، فإنَّهُ من السعادة» (المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٨، ص٢٤٤).

يعتبر مفهوم «الرزق» كـ«التوكل» من المفاهيم الإنسانية ذات الحساسية البالغة، لذلك صارت لدى الناس انطباعات متضاربة عنه، تخفى وراءها حقيقة مفهوم الرزق، فالفهم التقليدي عن هذا المفهوم أو ما يسمى بالقراءة السكونية، أوقع العامة في شك وحيرةٍ من أمر الرزق وكيفية الحصول عليه، وفي هذه الرواية يحمل هذا المستفسر الفهم الخاطئ عن مفهوم الرزق، فيواجهه الإمام عليه السلام بقراءته الممتازة ليعدِّل سياقه الفكري ضمن هذا التوجيه المعنوي الدقيق لظاهرة

---

١. تأكّل السّن أو العود: صار منخوراً وسقط.

الرزق. ولا يقتصر على ذلك، بل يذكّره بإحدى القوانين التي تحكم العلاقات الاجتماعية وتنظّمها بقوله عليه السلام: «أبى الله عليك ذلك إلّا أن يجعل أرزاق العباد بعضهم من بعض».

النقد البلاغي للنص

يشكل النقد البلاغي للنص، جانباً هاماً في المأثور الروائي، فهنالك العديد من الروايات الواردة عن أئمة أهل البيت عليهم السلام نجد فيها إشارات تنمّ عن توفّرهم على الحس النقدي والبلاغي، منها ما رواه الجاحظ: «أن الحسن رضي الله عنه كان يخطب في دمٍ لقومٍ من «مجاشع» فقال رجلٌ منهم: قد تركنا ذلك للهِ ولوجوهكم. فقال الحسن: لا تقل هذا، ولكن قل: تركنا ذلك لله ثم لوجوهكم وآجرك الله» (الجاحظ، د.ت، ج١، ص٣٧٩)؛ فقد فطن الإمام الحسن عليه السلام إلى حق الكلام، وأدرك أنّ المقام يقتضي التفاوت بين ذكر الله وآل البيت، وأنّه يتطلب «ثمّ» دون «الواو»؛ وهذا نقد بلاغي توجيهي نلمح فيه روح الاشتراع والتقنين، والذي يُعدّ إرهاصاً لعلوم البلاغة وقواعدها.

وعن صعصعة بن صوحان قال: «جاء أعرابيٌ إلى علي بن أبي طالب عليه السلام فقال: يا أمير المؤمنين! كيف تقرأ هذا الحرف: «لا يأكله إلّا الخاطون، كلٌّ واللّه يخطو؟»؛ فتبسم عليٌّ عليه السلام وقال: لا يأكله إلّا الخاطئون. قال: صدقتَ يا أمير المؤمنين ما كان اللّه ليسلم عبده» (كنز العمال، ح٢٩٤٥٧)؛ فالرجل لم يفصح عن مقصوده فكان أن وقع في الخطأ، ولكن الإمام عليه السلام وجّهه توجيهاً بلاغياً، بقراءته الفصيحة للكلمة، علماً أنّ الإفصاح عن المقصود يعدّ من أهم آليات فهم النص.

وقال الإمام الصادق عليه السلام: «أعربوا كلامنا، فإنّا قومٌ فصحاء»، أي أظهروه وبيّنوه. فالبيان والإظهار ـ كما هو معروف ـ أسّ الفصاحة، فمن لم يُبن، لم يُفصِح، ومن خلال هذا التوجيه البلاغي أيضاً، يُبدي الإمام حساسيته تجاه اللغة حيث تكشف هذه الحساسية عن بالغ اهتمامه بالكلام الفصيح.

ومن النقد البلاغي ما رواه الكليني في مرفوع أبي مريم الأنصاري: «أن الحسن بن علي عليه السلام خرج من الحمام، فلقيه إنسان، فقال: طاب استحمامك.

فقال: يا لُكع وما تصنع «الإست» ههنا؟

فقال: طاب حميمك.

فقال: أما تعلم أن الحميم العرق؟

قال: فَطَاب حَمَّامُك.

قال: وإذا طاب حمّامي، فأيّ شيءٍ لي؟ ولكن قُل: طهُر ما طاب منك وطابَ ما طَهُر منك» (الكليني، د.ت: ج٦، ص٥٠٠).

يدّل هذا النقد البلاغي الرائع على مدى وعيهم بالنص؛ خاصة فيما يتعلق بالأدب العام، كما يدلّ على حرصهم على الاحتفاظ بنزاهة هذا الأدب. وهناك لطيفة أخرى في هذا الموقف الأدبي تتمثل في استدراج الرجل وعرض العبارة البديلة عليه عن طريق توظيف أسلوب الاستفهام وهو مِن أنسب الأساليب في مثل هذا السياق الكلامي.

ثمّة نوعٌ آخر من النقد البلاغي يتناول المعنى ليعالج الخلل الذي يعتريه كما نرى في الرواية الآتية: «قال رجلٌ عند الإمام الباقر عليه السلام: اللّهمّ أغننا عن جميع خلقك! فقال الإمام عليه السلام: لا تقل هكذا، ولكن قل اللّهم أغننا عن شرار خلقك، فإن المؤمن لا يستغني عن أخيه» (الأمين، د.ت، ج١، ص٦٥٨). لقد أدرك الإمام عليه السلام بذكائه المعهود موضع الخلل المعنوي في كلامه، فبادر إلى تصحيحه في العبارة، إذ اقترح استبداله بتعبير سليم، مذكّراً المتلقي أن المعنى الذي تفوَّه به ليس صحيحاً، فالرجل يغفل أنّه في حاجة دائمة إلى الناس لذلك يدعو اللّه أن يغنيه لا عن الأشرار من الخلق بل عن الخلق كافةً، وهذا ما ينهى الإمام عنه، ثمّ يقدم إليه الدعاء في صياغته الصحيحة؛ فيطلب منه أن يدعو اللّه أن يغنيه عن شرار الخلق الذين يتركون المحتاجين على حالهم ويضيّعونهم، أما الطيبين فالحاجة إليهم أمرٌ واضحٌ.

وكان رجلٌ يتحدث عن خصوصيات جماعة من الناس في حضرة الإمام الصادق عليه السلام ويقول في معرض حديثه: «... وأرى من خالفنا، فأراه حسن السمت. قال الإمام عليه السلام: لا تقل حسنُ السمت، فإن السَّمت، سمت الطريق ولكن قل: حسن السيماء، فإنّ اللّه ـ عزّ وجلّ ـ يقول: ﴿**سِيَماهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ**﴾. قال: قلت: فأراه حسن السيماء...» (المجلسي، ج٦٧، ص١٢٢).

فالرجل لم يُفصح في قوله ولم يُبن حينما استخدم تعبير «حسن السمت» بدل «حسن السيماء» لذلك قطع الإمام عليه السلام كلامه لينقد تعبيره الخاطئ ويعلمه فصيح التعبير، مستنداً في ذلك إلى القرآن الكريم باعتباره أسَّ البلاغة العربية ومعيارها، أما الرجل فصحّح قوله واستعمل التعبير الذي اقترحه الإمام عليه السلام، فالرّواية تدلّ على اهتمام الإمام البالغ بحفظ سلامة القول العربي ومراعاة قواعده البلاغية. ثمة تعليق آخر على النقد الذي وجهه الإمام عليه السلام إلى كلام

الرجل، هو أنَّ الإمام منعه عن استعمال لفظة «السمت» باعتبارها توهم أن المنهج الفكري للذين يتحدث عنهم منهج رشيدٌ وحق، ولكي يصرفه عن هذا الفهم يوجّه إلى هذا الاستعمال الخاطئ للّفظة نقداً بلاغياً، واضعاً بين يديه القول الفصيح الذي يجدرُ استخدامه.

من نقد المعنى أيضاً هذه الرواية: «قال رجلٌ عند أبي عبدالله عليه السلام: «اللّه أكبر»، فقال: اللّه أكبر من أيّ شيءٍ؟

فقال: من كل شيءٍ.

فقال أبو عبدالله عليه السلام حدّدته.

فقال الرجل: كيف أقول؟

قال عليه السلام: قل: اللّه أكبر من أن يوصف» (الكليني، د.ت، ج١، ص١١٧).

هنالك نقطتان في هذه المعالجة النقدية، تتعلق الأولى منها بالنقد نفسه، حيث ينقد الإمام عليه السلام المعنى الذي اقتنع به الرجل ويعرِّفه المعنى الصحيح، والثانية تتعلق بالأسلوب الذي توخّاه الإمام لتوجيه نقده، وهو أسلوب الاستفهام باعتباره أنسب الأساليب لمثل هذه المواقف كما أسلفاً.

وممّا يتصل بالنقد البلاغي، عرض ألفاظ وتعابير منتقاة، قد يقترحها الإمام عليه السلام ويحبّذ توظيفها في النص؛ من جملتها ما يجُمُل توظيفها في المجاملات اليومية، فالإمام عليه السلام بحسّه البلاغي المستلهم من القرآن والكلام النبوي وذوقه الديني المصقول ورهافة شعوره يجد ـ مثلاً ـ بعض المجاملات أنسب للاستعمال، لذلك يوصي المخاطبين باستخدامها في تعاملات الناس ومواجهاتهم. وهذا في حد ذاته إسهام بلاغي نقدي، باعتبار أن الناقد البصير يدخل في صلب وظيفته، ذكر جودة النص أو رداءته.

وهنالك مجموعة مجاملات لطيفة أوصى الإمام علي عليه السلام بالاستفادة منها، هذه هي بعض منها: «إذا قال لك أخوك ـ وقدْ خرجت من الحمَّامِ ـ طابَ حمّامُك وحميمك، فقل: أنعم اللّه بالك. وإذا قال لك أخوك: حيّاك اللّه بالسلام، فقل أنت: فحيّاك بالسلام وأحلّك دار المقام. وإذا هنّأتم الرجل عن مولودٍ ذكرٍ، فقولوا: بارك اللّه لك في هبته وبلغه أشدّه ورزقك برّه. وإذا هنّأتم من قدم من مكة، فقولوا: قبّل اللّه نسكك ورحم سعيك وأخلف عليك نفقتك ولا جعله آخر عهدك ببيته الحرام» (المجلسي، ١٤٠٣، ج١٠، صص١١٣-١١٤). هنا يرشدنا الإمام عبر هذه التوصيات إلى فصيح القول في المجاملات، ولا تفوتنا الإشارة أنّه عليه السلام يؤكّد ضمناً على أهمية

ذكر كلمة «الله»، حيث وردتِ اللفظة في معظم هذه العبارات، وهذا يكشف عن مدى حرص الإمام على التركيز على هذا المفهوم وتعظيم محوريته في كل شؤون الحياة. كذلك نتبين في النص سمة بارزة من سمات الأدب الإسلامي، فالفاعل في «الإنعام» و«التحية» و«الإحلال» و«التبريك» و«القبول» كلها هو الله. فالتركيز على عقيدة التوحيد والاهتمام بها في جميع الأُمور أمرٌ يَحرص الإمام عليه السلام عليه كلَّ الحرص من منطلق توجهه الإيماني الخالص.

وفي نفس المجال روي عن الإمام جعفر الصادق عليه السلام أنّه قال: «ثلاثة يُردّ عليهم الدعاء جماعةً وإن كانوا واحداً: الرّجل الذي يَعْطِس، فيقال له: يرحمكم الله، فإنّ معه غيره. والرجل يسلّم على الرجل، فيقول: السلام عليكم والرجل يدعو للرجل، فيقول: عافاكم الله» (ابن بابويه، ١٣٦٢، ج١، ص٦٢). يأتي هذا التوجيه الأدبي ليزيد من جمال اللغة وظرافتها البالغة خاصة في باب المجاملات، وقد أصبح معياراً بلاغياً يقاس به جمال القول، وهكذا يُرسي الإمام دعائم الذوق الأدبي على هَدى القرآن والنبوة، وعلى أساس معرفته بالظروف الموضوعية.

وهذه رواية منقولة عن أبي جعفر عليه السلام تتضمن نقداً بلاغياً: «إنّ علي بن أبي طالب عليه السلام مرّ بقومٍ، فسلّم عليهم، فقالوا: وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته ومغفرته ورضوانه. فقال لهم أمير المؤمنين: لا تجاوزوا بنا ما قالت الأنبياء، لأبينا إبراهيم عليه السلام إنّما قالوا: رحمة الله وبركاته عليكم أهل البيت، إنّه حميدٌ مجيدٌ» (المجلسي، ١٤٠٣، ج٧٦، ص١١).

يعدّ مطابقة الكلام للذوق القرآني فضلا له؛ لأنّ القرآن منزلٌ من عند الله الحكيم الخبير، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، لذلك ينقد الإمام عليه السلام العبارة على أساس أدب القرآن، موجهاً القوم إلى أدب التحية في هذا الشأن، مستشهداً بالقرآن أيضاً في سعيٍ لتنقيح اللغة.

وفي رواية: «سأل رجلٌ أبا الحسن عليه السلام وهو في الطواف فقال له: أخبرني عن الجواد؟ فقال عليه السلام: إن لكلامك وجهين، فإن كنت تسأل عن المخلوق، فإنّ الجواد الذي يؤدي ما افترض الله عليه، وإن كنت تسأل عن الخالق، فهو الجواد إن أعطى وهو الجواد إن منع، لأنّه إن أعطاك، أعطاك ما ليس لك وإن منعك، منعك ما ليس لك» (المجلسي، ١٤٠٣، ج٩٢، ص٢٨٥). هذا العرض المدهش في جماله، الموجز في عبارته، والمكثف في دلالته، يكشف عن عمق تفكير المبدع واتساع أفقه الفكري، حيث ينبّه إلى السياق باعتباره محوراً هاماً في فهم المعنى.

وفي رواية أخرى: «جاء فقيرٌ عند الإمام الرضا عليه السلام، وقال له: أعطني على قدر مروّتك. فأجابه الإمام عليه السلام: لا يسعني ذلك. والتفت الفقير إلى خطأ كلامه فقال ثانياً: أعطني على

قدر مروتي. وقابله الإمام عليه السلام ببسمات فياضة بالبشر قائلاً: إذن، نعم» (المجلسي، ١٤٠٣، ج٤٩، ص٢٨٥). إذن نجد أن الأئمة عليهم السلام قد انتبهوا إلى مسألة السياق في تحديد المعنى، شتى الأساليب الكلامية في لفت الانتباه إلى أهميته.

وهنالك رواية أخرى، نلمح فيها نقداً رائعاً يتناول المعنى: «قال الرضا عليه السلام: رأى علي بن الحسين عليه السلام، رجلاً يطوف بالكعبة وهو يقول: «اللّهُمّ إني أسئلك الصبر». قال عليه السلام: فضرب علي بن الحسين عليه السلام على كتفه وقال: سألت البلاء، قل: «اللّهمّ إني أسئلك العافية والشكر على العافية» (المجلسي، ١٤٠٣، ج٩٢، ص٢٨٥). من الواضح أن عدم معرفة الرجل بالمعنى، جعله يتفوه بكلام جعله عُرضة للنقد، فصحّح الإمام عليه السلام مسار تفكيره بوضع المعنى الأصيل أمامه وساعده في معرفة السياق عند إلقاء الكلام.

هذا ويعتبر كشف خصائص النص من أهم وظاقف النقد البلاغي، حسب ما تتبنّاه مدرسة النقد الجديد، يقول الدكتور محمود البستاني: «إن هذه الوظيفة النقدية تسحب على كافة الاتجاهات النقدية، بما في ذلك الاتجاه الحداثاني في جنوحه إلى المتلقي، هذا إذا أخذنا بعين الاعتبار أن حرية القارئ مرتبطة بفضاء النص وحينئذٍ فإن عملية الكشف تطال النص وكاتبه وسياقه و...» (البستاني، ١٤٢٢، ص٢٩١). ثمّ يضيف قائلاً: «إن هذا التعريف أو مطلق التعريفات التي تتناول دراسة النص الأدبي تظل متساوقه مع التصور الإسلامي لعملية النقد» (البستاني، ١٤٢٢، ص٢٩١).

لاشكّ أنَّ كشف خصائص النص يفرض ضرورته، إذا كان النص يتضمن المبادئ والقضايا الأساسية التي تمس حياة الأُمّة، حيث يتطلب تعاملاً حذراً مع النص المذكور ـ كما أسلفنا ـ كونه ظاهرة ذات حساسية بالغة، وفي هذا الميدان يمكن الإشارة إلى ما ورد من مأثورٍ لعلي بن أبي طالبٍ عليه السلام وذلك في وصيته لعبد بن العباس، لما بعثه للاحتجاج على الخوارج، حيث قال عليه السلام في ملاحظته النقدية الفريدة: «لا تخاصمهم بالقرآن، فإنّ القرآن حمّال ذو وجوه تقول ويقولون، ولكن حاججهم بالسنة؛ فإنّهم لن يجدوا عنها محيصاً» (المجلسي، ١٤٠٣، ج١٨، ص٧١).

يكشف الإمام عليه السلام من خلال هذه المعالجة الموضوعية عن إحدى أهمّ الخصائص الدلالية للقرآن الكريم، ضمن تعبير، «حمّال ذو وجوه»، فللآيات أكثر من دلالة، مما يجعل المتلقي قادراً على أن يستلّ من النص ما يتطابق مع رؤية تتبنّاها، كما يكشف كلام الإمام عليه السلام في نفس الوقت عن ميزة السنة النبوية الشريفة، باعتبارها الميزان الرئيس لتلقي النص القرآني وفهمه.

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

١. الأمين، محسن (دون تا). *أعيان الشيعة*. ط٢، بيروت: مؤسسة الأعلمي.

٢. البستاني، محمود (١٤٢٢هـ). *الإسلام والأدب*. قم: المكتبة الأدبية المختصة.

٣. الجاحظ، عمرو بن بحر (دون تا). *البيان والتبيين*. قم: مكتبة الأرومية.

٤. ابن بابويه، محمد بن علي (١٣٦٢ش). *الخصال*. قم: جامعة المدرسين.

٥. ــــــــــــــ (١٤٠٤هـ). *عيون أخبار الرضا* عليه السلام. بيروت: موسسة الأعلمي للمطبوعات.

٦. ــــــــــــــ (١٤٠٨هـ). *علل الشرائع*. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

٧. ــــــــــــــ (١٤١٨هـ). *معاني الأخبار*. قم: مؤسسة النشر الإسلامي التابعة لجامعة المدرسين.

٨. الطبرسي، احمد بن علي (١٣٦٢ش). *الاحتجاج*. قم: أسوة قم.

٩. العياشي، محمد بن مسعود (١٤١١هـ). *التفسير*. بيروت: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.

١٠. الكليني، محمد بن يعقوب (دون تا). *أصول الكافي*. بيروت: دار الأضواء.

١١. المجلسي، محمد باقر (١٤٠٣هـ). *بحار الأنوار*. بيروت: دار إحياء التراث العربي.

١٢. النوري، حسين بن محمدتقي (دون تا). *مستدرك الوسائل*. قم: مؤسسة آل البيت لإحياء التراث.

١٣. متقي، علي بن حسام الدين (١٤٠٩هـ). *كنز العمال في سنن الأقوال والأفعال*. بيروت: مؤسسة الرسالة.